قصة كردية

قصة : حسين عارف .

ترجمة : عبدالغني علي يحيى .

- ابتاه ..
- بني .. حبيبي ...

حين جاهد ، ورفع رأسه عن الوسادة للحظات ، فأنه سرعان ما عاد لائذاً بالوسادة صامتاً هادئاً . لكن عيناه كانتا شاخصتين أبداً الى والده الذي ما برح يلوح له كشبح .. سعى الى رؤيته بوضوح ، فأخفق . وظل حتى في يقظته نهباً للوساوس أهو الحلم نفسه ، أم حقيقة ؟ ! لم يتيقن ، ونال منه اليأس . وأسدل جفنيه المائلين الى الزرقة على عينيه . وكفت عيناه الشاحبتان عن الرؤية ، فيما راح وعيه يسترجع الماضي من نقطة الصفر .

[.. عندما شرعت بالسفر في الفجر ، كان الجو صحواً ، والسماء صافية خالية بالمرة من السحب ، كنت تدوس الثلج ، فرحاً حثيث الخطى ، بل أن خطواتك النشيطة أوصلتك الى ذروة الجبل خلال ساعة من الوقت ، من غير أي إحساس بالبرد أوبأي لون من التعب . في أعماقك ثمة تنور يبعث الدفء في أوصالك ، أو أن فرحاً ما يمدك بقوة سحرية ، ولم يحد بك عن الطريق ، سوى الرغبة في مشاهدة منظر المدينة من علٍ ، والتي جعلتك تنحو صوب صخرة بجانب الطريق ، لتحرق لفافة وانت واقف . بعدها ، أرسلت بأبصارك وأنت تسحب انفاساً منها ، كان منظراً ساحراً وجذاباً ، ولمحت بيسر بيت عمك من بين البيوت ، ابتسمت ، وبعث في نفسك الضحك قوله : «لقد سقط بمقدار الذراع ونصف الذراع .. لن تقدر على المرور» . وبأبتسامة لا تفارق شفتيك ، أخذت تنقل أبصارك بأتجاه أقدامك ، وقمت بتتبعها بدءاً من طرف المدينة وانتهاءً بالموضع الذي وقفت فيه ، سررت بها ، فهي آثار أقدام وحيدة غادرت المدينة ، أحسست بشيٍ من الفخر والأعتزاز ، واسكرك الأحساس ذاك لحظات ، ومن ثم فجرك كما الرصاصة الطائشة المجنونة . فأثار ك وحركك وجعل ساقيك كالمروحة ، وراحا يشقان الثلج بسرعة ، ويختطفان جسدك . وبدا ذلك كلعبة وأنت تمارسها . كنت تتأمل ذلك وتقول مع نفسك : ها انك تمضي نحو الأسفل الى داخل الوادي والسير في الوادي لذيذ ، ولن يمضي طويل وقت وإذا به يوصلك الى السهل ، ولولا الثلج ، فأن بمقدورك اجتياز السهل في ظرف 45 دقيقة ، لكن الثلج عندما يبلغ موضع الحزام من الجسد ، فأن اجتيازه قد يستغرق ساعة كاملة . ان ذلك سهل ، بيد أن الصعوبة تبدأ بعد ذلك ، اذ يكون الجبل العاري لك بالمرصاد . آه أيها الجبل العاري ! انك بلية بحق . ويبدو أن الخالق نصبك خصيصاً لأجلي ، فأنت ، عارياً ، تنهك الرجال ، فكيف إذا بلغ الثلج عندك موضع الحزام من الجسد ! إن هذه المحاورة مع نفسك عملت على تضييق الخناق عليها ، حتى أن بوادر احساس بالقنوط أخذت تمد رأسها في أعماقك .. لكنك لم تقر بها ، اخفيتها عن نفسك . فقط ، انك حين أحسست بأنها تسعى في الخفاء الى بعث الشلل في خطواتك ، آنذاك سرى لهيب غضب عارم في أعضاء جسمك ، جعلك مثل كرة نارية ملفوفة ، دحرجت الكرة النارية في المنحدر ، أوصلتها الى داخل الوادي ، وحركتها في داخل الوادي أيضاً ، اقتحمت .. كنت تخطو وتشق الثلج بضربات من الركبة ، عبرت الوادي ، ووطأت السهل

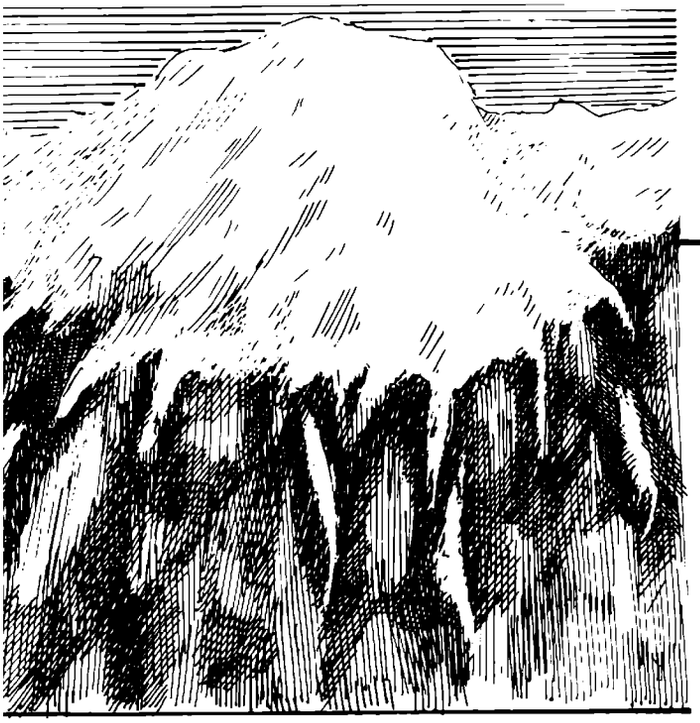

بقدميك . واستطعت ان ترفع رأسك من على صدرك ، نظرت أمامك ، فعدت الى نفسك ، وافقت ، وأحدثت ضربات قلبك وهبوط صدرك فصعوده المتواصل لوناً من الصخب والضجيج في سمعك . وفي فمك صار لسانك قطعة من الخشب ، في حين بدت حنجرتك وكأن قطعة من الموسى غرزت فيها ، ثمة ألم يوخز مقدمة ركبتك ، واقتنعت بأن عليك أن تخلد الى الراحة ، يجب أن ترتاح قليلاً ، لكنك صرت عاجزاً عن ترويض الكرة النارية التي شرعت بتحريكك وهزك ، كانت ، وبكل ما تحمله من عذابات تلهب الأرض تحت قدميك ، الى أن قطعت بك السهل وأوصلتك الى حذاء الجبل العاري . ليس هذا فحسب انما جرتك بأتجاه الذروة مسافة أربعين الى خمسين خطوة ، هناك احسست بصعوبة التنفس ، احسست بالأختناق ، كما وافقت على استحالة لحاق قدميك بك ، واللتان كفتا عن الحركة ، وغرزتاك في مكانك ، آنذاك شرع وعيك وفكرك بالعمل ، جعلاك تقرر ، وتجيل بعينيك ، وجعلا عينيك تتجهان نحو كهف «كور كودەر» جعلاك تصدر أمراً ، ولأجل تنفيذ الأمر ، فقد حركت قدميك ، لكنهما لم تتبعاك أول الامر ، وبالكاد حركتهما ، لم يكن الكهف بعيداً عنك ، وبمشقة بلغت المكان ، وفيه سقطت فوق الأرض خائر القوى . اضطجعت . ومددت ساقيك ، أخلدك التعب الى الراحة ، ومنحك العذاب الصبر ، وهكذا رحت لفترة تتأرجح بينهما ، الى أن لفتك السكينة في النهاية ، لم تكن تدري أهو النوم يأخذك أم أنك تغيب عن وعيك . فقط ، علمت كيف أن الدنيا غدت تظلم في عينيك . وبعد حين لما فتحت عينيك ، حرت ، رأيت الدنيا عكرة مضببة . لم تصدق ، قمت بدعك عينيك قليلاً ، لم يتغير المنظر في عينيك ، نهضت على قدميك ، سرى ألم حاد في جسدك ، لم تهتم ، كافحت واندفعت الى الخارج ، واذ نظرت ، فأن رجة أصابت قلبك .. لقد أمحت الزرقة تماماً من السماء . رحت تبحث عن الشمس ، وجدتها ، كانت تبدو على وشك الأنزلاق الى صدر السماء ، قلت مع نفسك : الوقت عصر ، لما بلغت هذا المكان كان الوقت حوالي الظهر ، يبدو اني نمت ، لا يصح ! أي نوم ؟ وبأي حال ؟ . لم تنجلِ لك الحقيقة ، ولم تكن في وضع يسمح لك بالجدال ، وقد امحت الزرقة تماماً من السماء التي اخذت تبعث بالرذاذ . اضطربت وتضايقت ، واخذ غشاء من الصدأ يغطي فكرك ووعيك . تقهقرت ، وقعدت . ومع نفسك رحت تقول : الثلج يبلغ موضع الحزام من الجسد ، ولا زال صعود الجبل العاري ونزوله بانتظارك ، ومن ثم اجتياز السهل فعبور النهر الكبير . الوقت عصر ، وقد تلبدت السماء بالغيوم ، تبعث بالرذاذ ، تريد أن تصب ، أن ترمي ، اضطربت تماماً . وعاد الغضب العارم اليك ليتوج الاضطراب ، نهضت على قدميك ، وخرجت من الكهف ، تطلعت الى السماء ، وقذفتها ببصقة مليئة بالحنق . بعد ذلك حركت جسدك المرهق وسرت صوب الذرى ، لم تصعد الا قليلا ، واستحال الرذاذ الى ندف ، وما هي الا هنيهة واذا بالسماء ستنهار لا ريب نحو الاسفل ، ولما صعدت قليلاً ، راح الثلج ينهمر رويداً رويداً وبغزارة في شكل ملايين من بيض الفروج ، واذ عدت الى نفسك لتجد غشاءً من الثلج يعلو كتفيك وعنقك . وقفت ، رحت تنفض غشاء الثلج ، وخطوت . كنت بالكاد تخطو نحو الذرى ، وافقت على وخزات الالم في ركبتك . صار لسانك قطعة خشب . وانغمرت قطعة الموسى في تمزيق حنجرتك . وعاد الغشاء الثلجي من جديد ليحط على عنقك وكتفيك . وقفت ، نفضت الرذاذ عنك ، التفت الى الوراء ونظرت . لم تر شيئاً ، بأستثناء رزم من الثلج ، كانت تمتد بين الأرض والسماء ، استدرت ، حدقت في الأعالي ساعياً الى رؤية قمة الجبل العاري والتي لم تقع عليها أنظارك . أخذ الاحساس بالمرارة يترسخ في أعماقك ، مد جذوره ، الى أن أحتل كل اعماقك ، حمل اليك الظلم ، وغدا بمثابة رهبة خفيفة ، وذكرتك هذه الرهبة الخفيفة بأبيك ، تتناهى الى سمعك كلماته : الذي يجمد في الثلج مثل طريدة تقع في الفخ لا تحس بنفسها الا حين يطبق الفخ عليها ، واذ يطبق عليها ، فأن من المحال انقاذها ، اللهم إلا اذا تدخلت الصدفة لنجدتها . كانت الرهبة الخفيفة تعوي في اعماقك وتضعك أمام تساؤلات تطرحها على

نفسك : ترى هل وقعت في الفخ ؟ أزعجك التساؤل وغير من تجاعيد سختك ، غضباً ورحت مع نفسك تقول : ماذا دهاك ها انك على وشك الأنهيار ! صحيح انك تعب ، وفي حالة قمينة بالرثاء ، ولكن مع هذا ، فهي ليست المرة الاولى ، انه ذاك الجبل العاري نفسه ، عدت الآن تواجهه . في الماضي كنت أنت الذي تلحق الهزيمة به دائماً ، تنتصر عليه . كنت تحرك جسدك باتجاه الذرى ، لكنك كنت في عوز الى الصبر في وعيك . كنت تجتر هذه الكلمات : الطريدة .. الفخ .. الصدفة .. اية صدفة ؟ مسافر ؟ ! محال ، اللهم إلا القدرة الربانية ! جلبت اليك الرهبة الخفيفة شيئاً من الخوف ، ومعها احسست بميل جسدك الى التوقف عن الحركة . استرجعت قولاً لابيك : ان أبي يقول : الذي يجمد في الثلج يصير كالذي يجثم الكابوس على صدره في الحلم . يتحفز ، يتهيأ ، يمد اطرافه ، يستغيث ويصرخ . ومع كل هذا لا يفلح في الأتيان بأقل حركة أو نأمة فيها الخلاص . وكمن تأخذه اغفاءة لذيذة ، يهدأ ويستغرق في نومه ومن ثم يكف عن التنفس تدريجياً وعندئذ ينتهي تماماً . بدرت حركة في اعماقك . قلت مع نفسك : انه الفخ ، أو الصدفة : ولكن اية صدفة ؟ لا شيء ، لا تعلق عليها اي امل ، لتكن أنت الصدفة .. انقذ نفسك بنفسك ، لا تيأس ، استمر ، اضغط على جسدك كي يتحرك ، فالصعوبة تكمن في الصعود فقط ، بعدها تستطيع الانطلاق عبر السفح ، بمقدورك بلوغ النهر زحفاً اذا تطلب الأمر ، وهناك سيرونك في القرية . لا تيأس .. تستطيع .. تستطيع .. أحسست وكأن اللهيب يسري في جسمك الذي الفيته متعرقاً بعرق دافئ كثيف ، يبعث البلل في الثياب الداخلية الملتصقة بجسدك ، بعد ذلك أحسست بالبلل يبعث التجمد فيه قليلاً قليلاً ، ويحيل ثيابك الى غشاء جليدي يغطي الجلد من على سائر الجسد . لا بل أحسست وقد غدا الجليد ثوباً يلف جسدك . أدركت . بأنك على وشك الوقوف جامداً في مكانك .. يجعلك الجليد تنتصب جامداً ، أنت على وشك الميلان والأنحناء الى الامام . على وشك التكور ، لحظة ان كان فيك شيء من الدفء لاسترجاع مقولة أخرى لابيك ، استرجعتها : إن اللحظة التي تحل فيها المنية بامرئ يتجمد في الثلج هي اللحظة التي يتسلل فيها الانجماد الى داخل جمجمته ويتدلى في رأسه وفكره ، لقد أرعبك كل هذا ، قلت في ذات نفسك : ها اني احس به ، انه يسعى الى إختراق طبلتي أذني للوصول عبرهما الى داخل جمجمتي ، وإلا فما بال هذين القضيبين الحمراوين الساخنين يشقانهما . وجراء ذلك ، فأن تيار يقظة سرى في اعماق فكرك ووعيك ، ودفع التيار بجسدك ست الى سبع خطوات أخرى نحو القمة ، ومع كل خطوة كنت تخطوها ، كنت تحس ، وكأن قوة مخيفة تفشت في احشائك ساعية الى انتزاع كبدك وقلبك وقذفهما خارج جسدك . بعدها تسمرت خطواتك من جديد ، ومن جديد كذلك ، انحنى جسدك الى الامام . انكمشت ، لقد غطت الآلام المنبعثة من القضيبين الساخنين كل آلامك الاخرى . الى أن أحسست بتمزق طبلتي أذنيك وتسلل الجليد الى جمجمتك . الجليد يصير متدلياً ، يتدلى في دماغك ، ويتحول دماغك وفكرك الى قطعة من الجليد . وعلى حين غرة وقفت على رغبة سحرية تسعى الى مصاحبتك . تحتضنك بذراعيها ، تشدك إليها ، وتبث التراخي في جسدك ، تريحه ، وتهدئه ، بعد ذلك ، رويداً رويداً تدفعه الى نوم لذيذ . وفي نومك اللذيذ حلمت . وفي حلمك ، كنت ترى جسدك مثبتاً في قالب جليدي زجاجي وقد اضطجعت على ظهرك ، كنت ترى عينيه مثل كرتين زجاجيتين ، يتحركان يميناً وشمالاً ، ثم رأيت شبحين وقد أقبلا من جهة ما ليقف بالقرب من رأسه ، وجاهد هو للتعرف عليهما .. لم يقدر ، لم يلمح رأسهما وشكلهما وجسدهما بوضوح ، ولكن بأستثناء يديهما والتي امتدت على مهل باتجاه وجهه ، بلغته ، انحنيا فوقه ورفعاه مثلما يرفع صندوق . وطارا به نحو السماء ، واخذاه الى أن بلغا به القمة ، وهناك ذهبوا في استراحة قصيرة ، لم تعرف سبباً لها ، لكنك رأيت كيف أنهما رفعاه بسرعة ، وفي السماء طارا به نحو القرية ثم غطياه . وبعد فترة رأيت القالب الجليدي يذوب تدريجياً ويبلل فراشه ، في حين كان بدوره يتراخى تدريجياً ، اعضاؤه تتراخى ، عيناه اللتان كانتا ككرتين زجاجيتين تتحركان يميناً وشمالاً ، تريان شبح زحام صاخب مثل خلية نحل ، تسعيان الى معرفة : من هم ؟ ! تجاهدان ، تقدمان جهد فرهاد ، تريان خلل الدائرة الشبحية الكبيرة ، شبحاً صغيراً ، تقفان ، لبرهة تقفان عليه ، الى أن ينبعث منهما على حين غرة لمعان فرح طاغ ، كانت الالتماعة ترسل ضياءً خفيفاً الى سحنته ، آنذاك رأيت كيف انه راح يعتمد على بقايا قوة فيه ، يرفع رأسه من على الوسادة ، وكما الأنين يخرج صوت من بين شفتيه المنتفختين قائلاً :

- ابتاه ..
- ....